حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

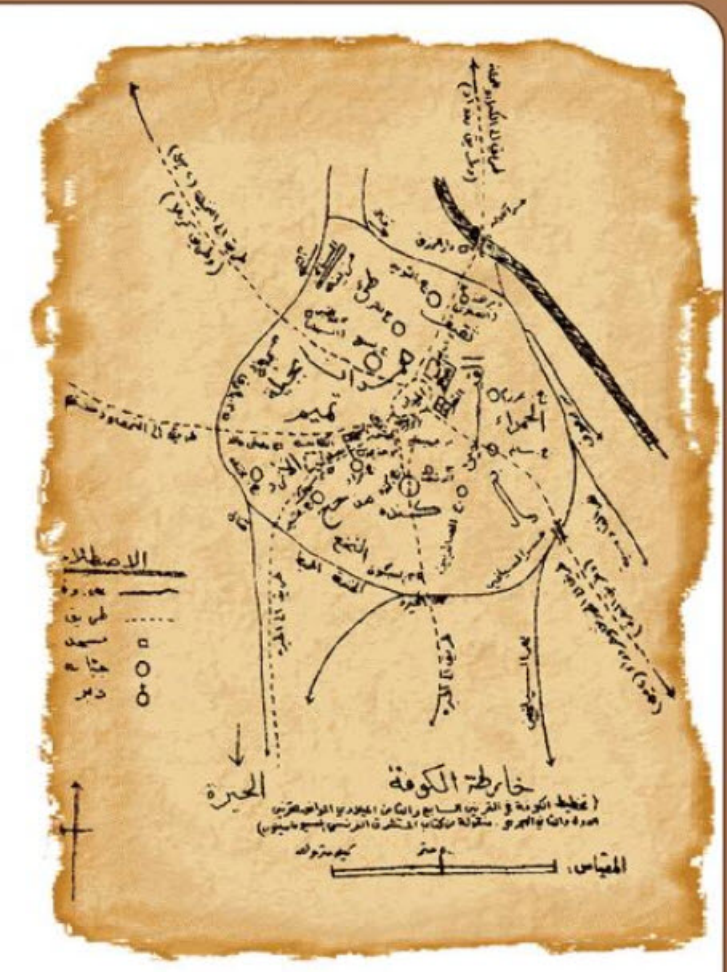

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

تجارة الكوفة بعد الغزو المغولي للعراق
حتى القرن ٨هـ/١٤م

الأستاذة الدكتورة صباح إبراهيم الشيخلي

١- موقع الكوفة ومكانتها التجارية

لما كانت التجارة في العراق قد وصلت إلى ذروة ما وصلت إليه في عهد الدولة العربية العباسية، فإن من الطبيعي أن يشمل هذا الازدهار مدن العراق المختلفة وأن يكون لكل منها نصيب فيه، ولم تكن الكوفة إلا واحدة من تلك المدن. ولعل السبب الرئيسي الذي جعل الكوفة تحافظ على مكانتها التجارية، هو موقعها على طريق الحج والقوافل التجارية، الذاهبة إلى بلاد الحجاز والقادمة منه، ذلك الموقع الذي لم تنقطع أهميته في أي وقت من الأوقات، حتى عندما كانت المدينة تسير في طريق الاضمحلال والاندثار.

وقد يكون من المناسب أن نتذكر في هذا المجال بأن الكوفة التي نشأت بعد البصرة بثلاث سنوات، قد ارتبط نشؤوها بهذا الموقع من أجل أن تحتل الوظيفة التجارية التي كانت تشغلها الحيرة، وكان اختيارها في هذا المكان إنما من أجل أن تمارس هذه الوظيفة إلى جانب وظيفتها الإدارية والعسكرية[١].

لقد أصبح موقع الكوفة هذا يمنحها أهمية كبيرة في مجالي التجارة الداخلية والتجارة الخارجية، فهي من ناحية ارتبطت بطرق التجارة الداخلية البرية والنهرية، كما مرت عبرها طرق التجارة الخارجية، وبخاصة طرق سير الحجاج وقوافلهم وتجارة المرور، فكانت على هذا الأساس واحدة من المدن التي انتعشت فيها هذه التجارة الأخيرة أبان العصور الوسطى على غرار مكة والمدينة وكربلاء والنجف[٢].

لقد كانت الكوفة، على حد قول ابن بطوطة «إحدى أمهات المدن العراقية»[٣]، ولم يكن قول هذا الرحالة العربي ناشئا عن فراغ، لأن المدينة احتلت مثل هذه المكانة إدارياً وعسكرياً وفكرياً واقتصادياً، وفي ضوء ذلك سنتناول الجانب الاقتصادي للكوفة، وبالذات نشاطها التجاري.

٢- تجارة الكوفة الداخلية:

بعد أن تأسست مدينة الكوفة قام فيها مركزان تجاريان هما دار الرزق (أو مدينة الرزق) والكناسة. فدار الرزق، الذي أنشئ في الأصل لجمع غنائم الحرب، تحول بمرور الزمن إلى مركز تجاري. وكما يحدد البراقي موقعه، فإنه يقوم اليوم في محل السوق المعروف بسوق (آل شمسة) أو قريباً منه[٤]. أما الكناسة، فمثلها مثل المربد في البصرة، وتقع في المدخل الغربي للكوفة، وأصبحت مكاناً واسعاً للتجارة واناخة الإبل وتحميل البضاعة وتفريغها، وتخصصت بالاتجار مع أقطار الخليج العربي والجزيرة العربية، إذ يقول البراقي: «ثم صارت (أي الكناسة) محلة أو سوقا أو محطة تجارية كبرى للعرب... وفيها تمركزت الأشغال التجارية مع البلاد العربية»[٥]. وكان في كل ناحية من نواحي الكناسة

(١) مصطفى عباس الموسوي، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية (منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،١٩٨٢) ص٣٣٦

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٦-٧؛ انظر أيضاً ira M. Lapidus Middle Eastern,p.١٠٦.(Cities (USH and London,١٩٧٩

(٣) محمد بن عبد الله اللواتي ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتانيش (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩، ج١ص٢٣٨.

(٤) حسين بن أحمد البراقي، تاريخ الكوفة (المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ط٣، ١٩٦٨، ص١٢٧؛ انظر أيضاً: Muhammad Rasid al-feel, The historical geography of Iraq between the mongolion and Ottoman conquests ١٢٥٨-١٥٣٤(Baghdad, vol. ١١,p١٥١.(١٩٦٧

(٥)البراقي، المصدر السابق، ص١٢٨.

أسواق للبزازين وآخر لبيع الماشية والجمال والحمير والبغال، وهذه الأسواق جميعها هي التي تقوم بمهمة التجارة الداخلية في الكوفة[١].

ولعل ما شجع حركة التجارة الداخلية في هذه المدينة، إن المناطق المجاورة لها كانت مليئة بالخيرات. إذ يصفها الجزيري (في القرن ١٠هـ/١٦م) بقوله: «وما بين بغداد والكوفة قرى عامرة وحياة متصلة وأسواقاً قائمة وخيرات وافرة»[٢].

ومما يشبه بوفرة خيرات الكوفة أن أهلها بعد احتلال المغول لبغداد، كانوا يجلبون الأطعمة للمدينة الأخيرة، ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة[٣].

وإلى جانب المنتجات الزراعية التي كانت تنتجها المناطق المجاورة للكوفة، والتي دخلت في تجارتها الداخلية[٤]، فإن هناك بعض المنتجات المصنوعة التي عرفت بها المدينة مثل العمائم الغزية ذات السمعة المشهورة. هذا بالإضافة إلى الكوفية الجميلة التي تحاك في الكوفة، وإلى سلك أولي خالص عرف باسمها[٥].

لا تتحدث المصادر المحلية المعاصرة عن طبيعة التجارة القائمة بين الكوفة والمدن العراقية الأخرى، وإنما نجد مثل هذه الإشارات القليلة في كتب الرحلات.

ويفهم منها إن الكوفة وإن ظلت ذات نشاط تجاري داخلي بعد الغزو المغولي لبغداد، إلا أن عوامل الخراب والدمار أخذت تحل بها، ومع ذلك فإن ابن بطوطة الذي مر بالمدينة في الربع الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أشاد بالأسواق الموجودة في الكوفة حيث قال: «وأسواقها حسان، وأكثر ما يباع فيها السمك والتمر»[٦].

(١) الموسوي المصدر السابق، ص٣٣٧. مما يذكر أنه مع اشتهار الكناسة وتكرر ذكرها في الحوادث التاريخية، إلا أنه من الصعب تحديد موقعها اليوم. البراقي المصدر السابق، ص١٢٨.

(٢) عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصاري الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج طريق مكة المعظمة (المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٤) ص٤٦٥.

(٣) د. محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (مطبعة القضاء في النجف الأشرف، ١٩٧٠) ص١١٢.

(٤) يؤكد القزويني الذي كتب عن الكوفة في القرن ٨هـ/١٤م «بان المناطق المحيطة في الكوفة كانت معروفة بجودة محاصيلها في القطن، والحنطة والحبوب الأخرى». نقلاً عن الدكتور جعفر حسين خصباك، العراق في عهد المغول الايخانيين ٦٥٦-٧٣٦هـ/١٢٥٨-١٣٣٥م (مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٨) ص٩٨.

(٥) Al-Feel, op. cit. vol. ١,p.٢٦٠

(٦) رحلة ابن بطوطة، ج١ ص٢٣٨.

إلا أن الظاهر أن النشاط التجاري في الكوفة قد أخذ ينتقل إلى مدينة النجف المجاورة، وهذا ما نلمسه في إشارة ابن بطوطة الذي مر بالمنطقة، إذ أنه تحدث عن تجارة النجف وأسواقها بشكل أكثر مما فعله بالنسبة للكوفة، إذ يقول: «وهي مدينة حسنة (أي النجف) ومن أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء، ولها أسواق حسنة، كسوق البقالين، والطباخين، والخبازين، ثم سوق الفاكهة، فسوق الخياطين والقيسارية، والعطارين»[٧].

٣- تجارة الكوفة الخارجية ومجالاتها

في الوقت الذي لا نجد إلا إشارات قليلة عن تجارة الكوفة الداخلية، فأن الصورة على أن وصول تجار الكوفة إلى هذه المنطقة لم يكن مقصوراً على أيام ابن جبير (في القرن٦هـ/ ١٢م)، وإنما استمر وصولهم حتى القرن٨هـ/ ١٤م، حيث أشاد ابن بطوطة بهؤلاء التجار لمكابدتهم عناء السفر في الوصول إلى (واقصة)، وتزويدهم الحجاج بما يحتاجون إليه من ماء وزاد حيث يقول: «وبه يلتقي (أي واقصة) كثير من أهل الكوفة الحاج، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه»[٨]

أما (فيد)، التي تقع على بعد قليل إلى الجنوب الشرقي من حائل، فقد ذكرها الجغرافيون بقولهم إنها بلدة صغيرة تقع على طريق القوافل المارة ما بين بغداد ومكة، إذ يقول ابن بطوطة الآتي:

«وهنالك (أي في فيد) يترك الحجاج بعض أزوادهم عند وصولهم من العراق إلى مكة، فإذا عادوا وجدوه. وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد، ومنه إلى الكوفة مسيرة اثني عشر يوماً في طريق سهل به المياه في المصانع»[٩]

ولا يستبعد أن يكون نشاط تجار الكوفة قد وصل إلى هذه المنطقة، ذلك لأنهم كانوا يرافقون قوافل الحج الذاهبة إلى مكة عبر الصحراء، حيث يتبادلون السلع مع العرب إذ يشترون منهم الجمال والغنم والسمن واللبن مقابل الثياب الخام[١٠]

(٧) المصدر نفسه، ج١ ص١٩٨.

(٨) رحلة ابن بطوطة، ج ص١٩٣، انظر أيضاً: كارلتون كون، القافلة: قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجاني (دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٥، ص٤٨٤ حيث أشار إلى آل سفرة ابن بطوطة لم تكن الوحيدة من نوعها مع التجار، ولكنها كذلك من حيث تفاصيلها الدقيقة.

(٩) رحلة ابن بطوطة، ج١ ص١٩٢.

(١٠) كون، المصدر السابق، ص٤٨٤: جورج أوغست فالين، صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة سمير سليم شلبي (منشورات أوراق لبنانية، بيروت، ١٩٧١)، ص١٢٩، ١٨٣.

كما وصلت نشاطات تجار الكوفة إلى بلاد الحجاز، إلا أن النصوص التاريخية لعام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م تشير إلى أن حكام مكة كانوا يتشددون في أخذ الضرائب[١].

منهم، وكانت هناك روح تذمر شديدة من وطأة هذه الضرائب وبعد عامين على ذلك، حدث تبدل في طبيعة الضرائب المفروضة على تجار الكوفة ومشهد الإمام علي عليه السلام إذ يقول ابن الصيرفي في حوادث سنة٨٣٢هـ/١٤٢٨م ما نصه:

«وتقرر أن بعض تجار الشام ومشهد علي والكوفة والبصرة الذين يتبضعون بجدة من متاجر الهند من القدوم من مكة إلى القاهرة ببضائعهم، وإن يقوموا عن كل حمل بثلاثة دنانير ونصف»[٢]

٤- العوامل المؤثرة في تجارة الكوفة.

كانت تجارة الكوفة قد بلغت أفاقاً واسعة في عهد الدولة العباسية، فكما وصفها الزهري المتوفى في أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي: «فإن الخز والديباج، والعمائم الكوفية المشهورة كانت تخرج منها إلى بلاد اليمن والصين والهند، ومنها يجلب السكر والطيب»[٣]

إن حركة التجارة الواسعة هذه لم تنقطع حتى بعد الغزو المغولي للعراق، وإن حدث تغير كبير في اتجاهها، وذلك بالتوجه شرقا أكثر من اتجاهها غربا نحو سوريا ومصر[٤]

ولكن حركة القوافل التجارية إلى بلاد الحجاز ظلت قائمة حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وإن شهدت تناقصاً كبيراً. ومثل ذلك يقال عن الحجاج القادمين من الشرق حيث أنهم استأنفوا تبادل في تجارتها الخارجية، وهذا ما يعود إلى مشاركة أهل الكوفة في نشاطات طريق القوافل والحج، وتهيئتهم لكثير من المستلزمات التي تتطلبها الرحلة عبر هذا الطريق.

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك حققه وقدم له ووضع حواشيه الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢) ج٤-٢ ص٧٥٥.

(٢) الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق الدكتور حسن حبشي (مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣) ج٣ ص١٤٥.

(٣) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تحقيق محمد صادق (بدون تاريخ) ص٥٣.

(٤) الدكتور عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ الاقتصادي العربي (دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨) ص٩٩.

وتقودنا هذه الأهمية إلى الحديث عنه بشيء من التفصيل، ومعرفة دور التجار الكوفيين في ذلك.

يبدأ طريق الحج من بغداد متجها نحو الجنوب عابرا نهر الفرات، حتى يصل إلى الكوفة. ومن الكوفة يسلك هذا الطريق الاتجاه الجنوبي الغربي نحو القادسية، ومنها إلى البادية. لقد وصفت كتب البلدانيين هذا الطريق، مؤكدة على حصول تغيير في اتجاهه بعد المائة السادسة للهجرة/ الثانية عشرة الميلادية. إذا أنه أخذ يمر بالحلة بعد خراب مدينة قصر ابن هبيرة، وهذا هو الطريق الذي سلكه ابن جبير (في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد)، ومن جاء بعده من الرحالة[٥]

أما الطريق من الكوفة إلى المدينة فيقدر بعشرين مرحلة[٦] ولا مناص لمن أراد الحج من السير عبر هذا الطريق وفق مراحل معينة، مرورا بالبادية الجنوبية الغربية (أو بادية نجد) حتى يصل إلى بلاد الحجاز -مكة والمدينة.

لقد حدد لنا الجزيري بصورة واضحة المراحل التي يمر بها طريق الحج ما بين الكوفة ومكة، مشيراً إلى أن أهم تلك المراحل بعد الخروج من الكوفة هي مشهد الإمام علي عليه السلام العذيب، الرحبة، سلمى واقصة (وهي من أشهر منازل طريق الحج العراقي، لما فيها من آبار وبرك)، حتى يصل إلى (ذات عرق). وهي النقطة التي يلتقي فيها طريق الحج العراقي القادم من البصرة بهذا الطريق القادم من الكوفة، ومن ثم يستعد الركب إلى وادي نخلة، ومنه يرحل أخيراً إلى مكة المكرمة[٧]

والملاحظ أن هناك الكثير من الآبار وأحواض الماء على طول هذا الطريق بين الكوفة ومكة، ويعود الفضل في ذلك إلى جهود زبيدة، زوجة الخليفة هارون الرشيد، حيث يقول ابن جبير في ذلك: «انتدبت لذلك العمل مدة حياتها، فأبنت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن.

ولولا آثارها في ذلك لما سلكت هذا الطريق»[٨]

كانت أهم المناطق التي وصلها التجار الكوفيون هي منطقة (واقصة)، التي تعد من أهم المنازل على طريق الحج ما بين الكوفة ومكة، إذ يحدثنا ابن جبير بقوله:

(٥) كي. ليسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عواد (مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤)، ص١١١-١٢.

(٦) Hamad Allah Mustawfi al-Qazwini, Qulub, translated by G. le strange (leyden, pp. ١٦٢-٣.(١٩١٩

(٧) للتفاصيل انظر: درر الفوائد المنظمة، ص ص٤٦٥-٦٧.

(٨) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رحلة بن جبير (دار مكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص١٦٥.

«ثم نزلنا بعد ذلك بواقصة، وهي وحدة من الأرض منفسحة فيها مصانع للماء مملوءة وقصر كبير وبأزائه أثر بناء، وهي معمورة بالأعراب، وهي آخر مناهل الطريق. وليس بعدها إلى الكوفة منهل مشهور إلا مشاريع ماء الفرات، ومنها إلى الكوفة ثلاثة أيام، وبها يتلقى الحاج كثير من أهل الكوفة وهم مستجلبون إليهم الدقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه الحاضرة في ذلك الوقت»[١].

السير عبر الطريق البري المار بالعراق والكوفة حتى القرن٨هـ/١٤م[٢].

على أن حركة التجارة الداخلية والخارجية في الكوفة قد تأثرت كبيراً بقارات القبائل العربية، بخاصة خفاجة التي تسببت أيضاً في خراب المدينة منذ أواسط القرن٦هـ/١٢م، وهذا أشار إليه ابن جبير وابن بطوطة وغيرهما من المؤرخين والرحالة الذين مروا بالمدينة[٣].

فالمعروف أن هذه القبائل كانت تهاجم القوافل التجارية وقوافل الحج المارة بديارها، ولم تكن تسمح بمرورها إلا بعد أداء ضريبة معينة. ولأجل استمرار سير القوافل ما بين العراق وبلاد الحجاز، فقد اضطر القائمون بالسلطة آنذاك على استرضاء القبائل، كما حدث في العهد المغولي، إذ يشير ابن الفوطي في حوادث سنة٦٦٦هـ/١٢٦٧ إلى ذلك بقوله:

«وأمر الناس (أي علاء الدين الجويني) بالتأهب للحج واحضر عرب الطريق وأطلق لهم من ماله شيئاً كثيراً وأخذ منهم الرهائن على أن يسيروا الحاج ويعيدوهم وعين للناس من يتآمر عليهم في السفر، فحجوا وعادوا سالمين»[٤].

وحدث مثل هذا أيضاً في عهد السلطان أبي سعيد الايلخاني، إذ أنه عقد اتفاقية سلام مع باير، سلطان مصر، وهذه الاتفاقية كانت تنص على إنهاء حالة الصراع بين البلدين، وحرية مواطنيهما في الاتجار مع بعضهما البعض الآخر. وقد تفاوض سلطان مصر مع القبائل القوية في الجزيرة العربية لضمان سلامة الحجاج القادمين من بغداد، على أن تقدم قبائل معينة، وبالذات آل فضل الطائية، بحراسة الطريق من الكوفة إلى مكة[٥].

إلا أن مفعول هذه الاتفاقية قد انتهى بعد موت أبي سعيد، بحيث أن بعض قوافل الحج كانت تضطر أحياناً بالتوجه إلى بلاد الشام والسير مع قافلة الشام إلى الحجاز، تجنبا لهجمات القبائل العربية[٦].

ومع ذلك كله، فإن فترات انقطاع حركة القوافل والحج عبر الطريق الصحراوي ما بين مكة وبغداد عبر الكوفة، لم تحدث بصورة دائمة وإنما كانت حالات طارئة، إذ سرعان ما تستعيد المدينة حيويتها، وهذا ما جعل الكوفة تعود إلى الحياة مرة أخرى، بعد ما مرت بفترات غير قليلة من الخمول والتدهور.

* * *

(١) المصدر نفسه، ص١٦٦.

(٢)

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٦٧-٨، ابن بطوطة، الرحلة، ج١ ص٢٠٤-٢٣٨.
كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن الغوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (مطبعة الفرات، بغداد، ١٣٥١) ص٣٥٨.

(٤)

(٥) الجزيري، المصدر السابق، ص٤٦٧-٨، Al-Rashid, op.cit,p.٦٠

(٦) جمال الدين أحمد بن علي الحسني المعروف بابن عنبة، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب (منشورات المطبعة الحيدرية في النجف، ط٢، ١٩٦١) ص٤٨:
الجزيري، المصدر السابق، ص٤٦٨.